أدباء عرب يبدعون باللغة الفرنسية

.. اسهاماً في إثراء الحوار ومحاولة في الاقتراب من ثقافة قريبة منا تعامل المثقفون العرب مع هذه الثقافة خاصة أبناء المغرب العربي ، يأتي هذا الكتاب القيم «منفى اللغة» الصادر عن مجلة دبي الثقافية العدد إبريل٢٠١١ م وهو عبارة عن مجموعة من الحوارات الشيقة والرائعة أجراها الدكتور شاكر نوري مع عدد من الأدباء الفرانكفوريين المنحدرون من أصول مغاربية أو افريقية أو شرق أوسطية والذين أتحفوا اللغة الفرنسية بإبداعاتهم الأدبية والثقافية ولهم توجهاتهم الفكرية والثقافية وآراؤهم الخاصة حول الثقافة العربية وحول كتاباتهم بهذه اللغة التي يرون من خلالها أن أعمالهم تصل إلى لغات عديدة عبر برامج الترجمة إلى لغات العالم المختلفة.

عرض/ خليل المعلمي

الدكتور شاكر نوري له باع طويل في الدراسات والأعمال الأدبية وله مشاركات كبيرة في الصحافة.. فقد هاجر الدكتور شاكر نوري مثل أجداده العراقيين للبحث عن عشبة الخلد فوصل إلى باريس في العام١٩٧٧ م وليس في جعبته إلا مفردات قليلة من اللغة الفرنسية التي لا تشفع له في الحصول على موطئ قدم وسط جيوش المهاجرين إلى العاصمة الفرنسية «باريس» إلا أنه ومثل مردة دجلة والفرات، وفي وقت ليس بطويل تمكن من اللغة الفرنسية والدراسة في السوربون ليحصل في العام١٩٨٣ م على درجة الدكتوراه، ماسمح له بالعمل في جامعة السوربون نفسها كأستاذ زائر، إلى جانب عمله في الصحافة العربية كمراسل أو محرر مثل الرياض السعودية والأقلام العراقية والقدس العربي وكل العرب وإذاعة مونت كارلو.. قبل أن يستقر به الحال في الإمارات في العام٢٠٠٤ م لينضم إلى أسرة الصحافيين العرب المقيمين والعاملين فيها.

اللغة الفرنسية.. ضرورة أم اختيار؟

على الرغم من أن قلة الإقبال على قراءة وترجمة الأدب الفرنسي في العالم وفي الوقت الذي لم تعد فيه باريس عاصمة الفنون.. إلا أن الكثير من الكتاب الأجانب وبعد مرور نصف قرن من ذلك يختارون اللغة الفرنسية لكتابة أعمالهم المسرحية والروائية.

وحتى بداية القرن العشرين كان تبني اللغة الفرنسية لا يعبر عن الاختيار بقدر مايعبر عن الضرورة والامتياز الاجتماعي في مدارس روما ووارسو، كانت لغة موليير وديدرو تعبر عن التبادلات الثقافية والسياسية وكازانوفا هو أول من كان نموذجاً للغة الفرنسية العالمية.. فقد ولد في ايطاليا قبل ان يغزو أوروبا، ثم يكتب عشرة مجلدات من مذكراته باللغة الفرنسية ولغته حيوية وكثيفة تماماً مثل لغة فولتير: انجازات الآلة الموسيقية التي تعلمها الاثنان وسيطروا عليها قراءة ومحادثة.

أما المرحلة الكبيرة الأخرى فهي مرحلة الإشعاع الفني الفرنسي وولادة الفن الحديث في باريس باعتبارها مختبراً تجريبياً لكافة الأساليب الفنية، منذ العام١٨٩٣ م كتب «اوسكار وايلد» باللغة الفرنسية وقد اقتفى أثره مجموعة من الكتاب الأمريكيين إضافة إلى الكتاب المهاجرين من الروس والرومانيين والبولونيين والأسبان، وأصبحت مداولة اللغة الفرنسية عالمياً في مقاهي مونمارتر ومونبرناس..

ربما يجد الدكتور شاكر نوري مؤلف هذا الكتاب الإجابات حول ذلك لدى الكتاب والمؤلفين والأدباء في اختيار اللغة الفرنسية كلغة لإبداعاتهم وإصداراتهم ولكل واحد منهم رؤيته وتعليله لإنجذابه تجاه هذه اللغة خاصة من عايشها من صغره سواء في بلاده أيام الاستعمار الفرنسي أو مهاجراً معايشاً لها وسط مدينة الفنون «باريس» وأخواتها المدن الفرنسية.

الفرانكفونية

خلال السنوات الماضية حاولت فرنسا أن تخلق صيغة تستقطب من خلالها كل من له علاقة جزئياً أو كلياً باللغة الفرنسية وثقافتها وأعطت لهذه الصيغة تسمية «الفرانكوفونية».. وعلى المنحى السياسي فإن الرئيس الفرنسي «فرانسوا ميتران» نظم حولها مجلساً للفرانكوفونية ودعا إلى مؤتمر قمة لرؤساء الدول التي تتكلم الفرنسية أو تجعل من اللغة الفرنسية لغتها الرسمية، كما هي الحال بالنسبة إلى بعض البلدان الأفريقية السوداء.. أما إعلامياً فالمجلة الفرنسية المتخصصة بقضايا الشرق والتي تسمى «دفاتر الشرق» قد أكدت في افتتاحية عددها الرابع مايلي: «أن عالم الفرانكوفونية بالرغم من كونه متفجراً، فإنه مع ذلك يشكل فضاءً رمزياً موحداً، وعالماً متنوعاً توحده اللغة الفرنسية وتجمعه الإرادة المشتركة للذين يتحدثون بها من أجل تخطي حدود التقوقع والتشتت، ذلك لأن الفرانكوفونية انبثقت من هذه الإرادة ومن الرغبة من تهيئة سياسية تسعى إلى تقارب الشعوب وتنمية التعاون بينها.

ومشروع الفرانكوفونية كما هو واضح من خلال دعاته مشروع ثقافي يتطلع إلى غايات سياسية محددة، وبدأ يتحرك من خلال تنفيذ القرارات المتخذة من أجل نشر اللغة الفرنسية وثقافتها باستعمال أساليب متعددة مثل القنوات الفضائية الموجهة عبر برامجها إلى دول المغرب العربي إضافة إلى الكتب والصحف والمؤسسات التعليمية التي تسعى إلى اكتساح ثقافي قد يؤدي إلى خلخلة مكونات الهوية العربية في المستعمرات الفرنسية القديمة ومنها دول المغرب العربي.

أدباء المغرب العربي

يشير المؤلف إلى أن التفكير بالأدب المغربي المكتوب باللغة الفرنسية تتوارد إلى الأذهان أسماء كبيرة أرست لهذا الأدب وحفرت له

سطوراً مثيرة وهذه الأسماء راسخة في التاريخ الأدبي وممتدة في جذوره وهي متنوعة على خارطة الجزائر وتونس والمغرب: رشيد بوجدرة، محمد ديب، مالك حداد، محمد خير الدين، عبدالكبير الخطيب، عبداللطيف اللعبي، عبدالوهاب المؤدب، رشيد ميموني، مصطفى التليلي، أمين معلوف، جورج شحادة، وعشرات غيرهم.

ويتساءل قائلاً: هل الأدب الذي يبدعه الكتاب والأدباء العرب بالفرنسية يشكل إضافة إلى الثقافة العربية أم يساهم في خلخلة الهوية؟.

»اللغة الفرنسية منافي» هذا ما قاله الكاتب الجزائري «كاتب ياسين» لكن «منفى اللغة هذا» أبدع مئات الأعمال الأدبية من شعر وقصة ورواية ومقالة وأصبح وثيقة نادرة عن معاناة شعب رزح تحت نير الاستعمار الفرنسي سنوات طويلة..وهذا شأن معظم أدباء المغرب العربي الذين يعانون ازدواجية التعبير.

وهناك تساؤلات عديدة تواجه الرواية المغربية المكتوبة بالفرنسية يقول المؤلف ومنها: هل تلعب الرواية المغربية الفرانكوفونية دورا مهماً في تشكيل وعي الناس وتجاربهم؟ وهل تفتح الكتابة بالفرنسية المجال أمام الكتاب المغاربة لتناول المحرمات التي لايمكن للكاتب العربي الاقتراب منها بالعربية؟ وهل تختلف طريقة التعامل مع النص الأدبي في اللغتين العربية والفرنسية؟ وماهي حدود اللغة.. أهي غاية أم وسيلة؟

ولهذا فإن الأدب المغربي المكتوب كما يراه المؤلف يثير اشكاليات عديدة مادام له أنصار ومعارضون، فالمعارضون لهذا الأدب يتهمون الكتاب المغاربة بالتعبير الفرنسي- بأنهم يهيمون في فلك «التذبذب الثقافي» لكن الحقيقة تشير -كما أكدت جميع الأبحاث والدراسات والتقارير- إلى أن الاحتلال الأجنبي حاول دوماً طمس معالم اللغة العربية وأحلال اللغة الاجنبية محلها في بلدان المغرب العربي.

ويقول الكاتب المغربي الطاهر بن جلون «كنا جماعة تتقيأ هذه اللغة بوضعها داخل تضاربها النحوي وإسباغ ألوان المعاني العربية عليها كأن ذلك لعبة، ولقد انتهيت منها الآن لتعترضني بعد ذلك مشكلة أخرى وهي اختيار لغة الكتابة بالفرنسية، اللغة التي أملكها وأستطيع الآن الكتابة باللغتين وأستمر في الكتابة بالفرنسية».. إلاّ أن الطاهر بن جلون واصل الكتابة بالفرنسية وأبدع فيها بينما أهمل اللغة العربية ولم يذكر له إبداع فيها، وهذا لايقلل إطلاقاً من موهبته وإبداعه، ولابد أن نذكر أن المعارضين للأدب المغربي المكتوب بالفرنسية يشكلون الغالبية.

عالمية اللغة

ندرك تماماً أن اللغة الفرنسية هي لغة عالمية ومنتشرة في العديد من مناطق العالم بحكم التاريخ الاستعماري الفرنسي والذي استمر لقرون محا خلالها لغات الأقاليم المستعمرة وجعل من لغته وثقافته هي السائدة وهؤلاء الكتاب وقد ساعدتهم الظروف المختلفة على الإلمام الكامل بمفاصل اللغة الفرنسية فإن إبداعاتهم ومؤلفاتهم الأدبية من رواية وقصة وشعر قد انتشر بفعل هذه اللغة ومن خلالها ترجمت أعمالهم وإبداعاتهم إلى لغات أخرى ومنها العربية.

وعلى الرغم من ذلك فإن هؤلاء الكتاب قد عاد بعضهم للكتابة بلغته الأصلية كما فعل الأديب المغربي رشيد بوجدرة الذي كتب سبع روايات باللغة الفرنسية وانتقل مؤخراً إلى الكتابة باللغة العربية كما في رواياته الثلاث «التفكك» و«يوميات امرأة من ورق» و«معركة الزقاق» يعترض بنفسه على الكتابة بالفرنسية فيقول: «إن استغلال الفرنسية في المغرب العربي سيظل دائماً عملية سامة ويتساءل لماذا اللجوء إلى نمط ثقافي آخر لتغيير مجتمعنا؟ لماذا نعمل هنا على تطوير أدب مكتوب باللغة الفرنسية؟ وهل حدث أبداً أن سعى شعب ما إلي البحث عن جذوره في لغة أخرى غير لغته؟»

وبالنسبة لمن يعارض الأدب المغربي المكتوب باللغة الفرنسية فيقول المؤلف أن هناك من يعارض ذلك وأن هذا الأدب مخصص لقراء غير عرب كما يؤكد الكاتب المغربي عبدالكريم غلاب بقوله: «أعتقد أن العرب الذين يكتبون بالفرنسية قد يرضون الفن وقد ينقلون صوراً من مجتمعهم إلى قراء غير عرب ولكن مشاركتهم في النضال عن طريق الفن محدودة لأن قراءهم العرب محدودون جداً وأذهب بعيداً فأقول إن هؤلاء يتمثلون -وهم يكتبون بالفرنسية- الفكر الفرنسي والمجتمع الفرنسي أكثر مما يتمثلون مجتمعهم العربي، لأن اللغة لها أثر في الفن كما أن لها أثراً في الفكر.

وعلى أية حال فإن الكتاب يضم بين دفتيه حوارات رائعة وجديرة بالقراءة لما تشتمل من أفكار ومعلومات غزيرة عن الضيف الذي يتم محاورته، وكذلك ما دفعهم للكتابة بهذه اللغة، حيث أدركوا أن اللغة تشكل وعاء هذا الأدب، على الرغم من سعي بعضهم للكتابة باللغة العربية وخصوصاً رشيد بوجدرة أو كاتب ياسين حيث كتب الأخير معظم مسرحياته باللهجة الجزائرية الدارجة كي يعطي لأدبه تواصلاً حميمياً مع الجمهور لكن غالبيتهم لم يتجرأ على الاستغناء عن التعبير باللغة الفرنسية لأن هذه اللغة تنامت وتطورت في وعيهم وثقافتهم منذ الطفولة.

الوطن الأمان

د. عبدالكريم البحلة

■،، هدّم نظام الشعر واكتب ما تريد
كما تريد
اكتب بلا وزن ولا تحفل بقافية ولا تخضع لحرف للروي
اكتب ولا تبحث عن الصور الجميلة
لا تنتخ القيم النبيلة والشيم
لا ترسم المستقبل المنشود
دع صوغ النفوس كما يشاء الحالمون
شعراء أمتك المجيدة عبر مراحل التاريخ
قد صاغوا الفضائل كالقلائد
زرعوا بها كل النفوس فأثمرت مجداً وتاريخاً عظيماً
دع كل ذلك إن أهل زمانك المنكوب قد قتلوا الفضائل كلها
قطعوا لسان الشعر هدّوا نظمه الموزون واغتالوا الروي
حتى تعاليم السماء تأولوها كيفما شاؤوا
ولوّوا كل أعناق النصوص
كل يفسر ما يريد كما يريد
فتعالت الأصوات وانطلقت شرارات الخصام
حكومة ومؤيدون
ومعارضون تناقضت أفكارهم
وتخالفت أهدافهم
هدف وحيد يجمع المتناقضين
إشاعة الفوضى وتخريب البلاد
وتسور الخصمان كل نفوس هذا الشعب وابتدأ الجدال
شردوا اللغة الجملية
أسوأ الألفاظ فاحت من براميل القمامة
واغتالت الأحقاد كل الحب وانكشفت القناع
رحل التآلف والوداد
وتسور الخبثاء أسوار السكينة والأمان
ليبعثوا الخوف الرميم
نفخوا بصور الغدر فاستولى على كل النفوس الروع
والوطن الأمان
نحن بلا وطن إذاً
فالشعب بين رحى الخصمين يطحن ثم يعجن بالدماء
ولا يرى خبزاً له، والخبز الوطن
نحن بلا وطن إذن
والشعب يعلم من أشاع الخوف من ركب العناد
الحق متضح ويأبى الحق أعداء الرشاد.

إصدارات ثقافية

رواية «خيول الشمس» من 6 أجزاء

■ أصدر مشروع «كلمة» للترجمة التابع لهيئة أبوظبي للثقافة والتراث، رواية جديدة من ستة أجزاء بعنوان «خيول الشمس: ملحمة الجزائر» للأديب الفرنسي جول روا، والتي قامت بنقلها للعربية المترجمة ضياء حيدر.

تمّ نشر هذه الرواية في البداية على مراحل من خلال ستة كتب نشرت تباعاً (ولكن المؤلف عاد وجمعها في رواية واحدة أسماها «خيول الشمس – ملحمة الجزائر» والتي يعود «مشروع كلمة» لينشرها في صيغتها الأولى، أي في ستة أجزاء) مبنية في قسم كبير منها على تجربة المؤلف الشخصية، وتكاد تكون سيرة ذاتية، في ملحمة وزع فيها تجربته على أكثر من شخصية.

«ثورة المليون شهيد» قد يكون هذا العنوان هو أقصى ما يعرفه الكثير وربما أغلبية العرب اليوم، عن تلك الحقبة من الاستعمار الفرنسي للجزائر التي امتدت زهاء مئة وثلاثين عاماً (١٨٣٠ – ١٩٦٢). هذه البلاد التي لم يبق في ذاكرة معظم العرب عنها سوى أنها خاضت مقاومة باهظة الكلفة لنيل استقلالها، ولم تحفظ الغالبية منها سوى بعض أسمائها ورموزها؛ ويظل نمط الحياة التي عاشها الشعب الجزائري (وأيضاً المجتمعات الاستيطانية أو الاستعمارية الفرنسية) على امتداد هذا الاستعمار الطويل مبهمًا وغامضًا؛ هذه التجربة الإنسانية الغنية ومتعددة المستويات والتقلبات والمراحل على ضفتي المستعمِر والمستعمَر، التي لم يؤرخها بهذا العمق والاتساع والشمولية سوى هذا العمل الروائي، الملحمة الضخمة للكاتب الفرنسي جول روا، «خيول الشمس»، راصداً من خلالها شبكة العلاقات الشائكة والمعيش اليومي والتحولات النفسية على مدى أجيال، لتنتهي بالإطاحة بالاستعمار مع الكثير من الأثمان، وهي أثمان لم يدفعها فقط الشعب الجزائري بل والمستعمرون أيضاً الذين عاشوا وهما طويلا لبناء حياة حسبوها مستقرة ومديدة في بلاد بديلة. و«عشقوا» الأرض التي استعمروها، فهي التجربة والتي حسب روا (كما جاء في مقدمة عمله) «ضخت عروق فرنسا بدم لم يتوقف عن الغليان، لأنه لم يكن في وسع أي امرئ يطأ أرض الجزائر ألا يقع في عشق هذه البلاد. حلم لم يفارق الذاكرة. من يعلم؟ سراب. ملحمة ذات ارتجاعات غير منتظرة، ضمن عائلة تشبه تماماً عائلات أخرى بالعواصف والإرهاصات والمحن التي عاشتها لأكثر من قرن، أسطورة يمكن لكل شيء فيها أن يكون حقيقياً أكثر من الواقع».

فالكاتب الفرنسي جول روا الذي ولد في الجزائر وكان واحداً من أولئك الذين سموا بـ«الأقدام السود» وهم الفرنسيون والأوروبيون الذين عاشوا في الجزائر خلال فترة الاستعمار، كان لصيقاً بهذه التجربة بكل ما فيها، وعاش حتى تجربتها العسكرية، ولكن انتهى الأمر به ليكون واحداً من أشدّ مناهضي الاستعمار ومن مؤيدي الشعب الجزائري في معركة استقلاله وحريته.

وقد بدأ روا بكتابة هذه الملحمة في العام ١٩٦٦، عندما كانت هذه التجربة ما تزال حية نابضة بكل تواريخها ووجوهها ورموزها، ولكن ما بثه روا في روايته هذه أعمق بكثير من التأريخ السياسي للاستعمار؛ لقد صنع تأريخاً إنسانياً مبنياً على قصص واقعية على خلفية مخيلته الروائية، فبالإضافة إلى تجربته الشخصية، عاد روا وزوجته إلى الجزائر وعمل لسنوات على جمع المعلومات عن الأماكن والأحداث، وعند وضعه الرواية لم يقم بعمل توثيقي كلاسيكي، بل نسج رواية ملحمة، امتدت على أجيال، مبنية على قصص عائلات لاحق تطور أجيالها بكل شبكة علاقاتها العاطفية والسياسية والاقتصادية المعقدة، تشعب قليلاً هنا وهناك، ورسم دائماً الحياة على خلفية الأحداث التاريخية الكبيرة والصغيرة، ولكن من دون أن يغرق فيها، ليقدم خلفية شفافة تتشابك فيها الحيوات اليومية لأشخاص (شخصيات) ولدوا وكبروا وأحبوا وخانوا وتزوجوا وماتوا وعاشوا الصراعات وأصيبوا وقتلوا وخرجوا .

ولد «هكتور» في الرواية من أم تدعى «ماتيلد» ومن مدرّس فرنسي يدعى «ديماتون»، وهو كالكاتب في الرواية عاش تجربة المدرسة الإكليريكية ومن ثم التجربة العسكرية في الهند الصينية... وأخوه نفسه عامل السكك الحديدية و«إليز» زوجة أخيه التي يصفها في مقدمة كتابه... إنها الحياة النابضة في ملحمة قدمت ما لم يقدمه أحد عن تجربة الاستعمار الفرنسي، عن المعنى الحقيقي للاستعمار في الحياة اليومية، عن ذلك الصراع الداخلي الدامي، عن التناقضات التي تصنع التحولات في البشر، عن التدمير اليومي للهوية، وعن الاقتلاع والتغريب أيضاً وعن معنى الأرض والأرض البديلة، عن معنى الأوطان والهويات...

ولد جول روا في الجزائر عام ١٩٠٧ من واحد من عائلات المستوطنين الفرنسيين، وتابع دروسه الثانوية في المدرسة الإكليريكية، قبل أن يدخل إلى السلك العسكري في جند المشاة ثم الطيران العسكري في فرنسا لينتقل بعدها إلى بريطانيا ويشارك في الجيش الفرنسي للتحرير. في العام ١٩٤٦ يغادر الجيش الذي اعتبر حربه في شبه الجزيرة الهندوصينية مخزية، ليتحول بالكامل إلى العمل الأدبي. حاز العديد من الجوائز الأدبية. وأصدر إلى أعماله الروائية والقصصية التي وصلت إلى أكثر من ثلاثين عملاً، أعمالاً مسرحية وشعرية.

من أعماله الروائية: «خيول الشمس»، ١٩٦٨ – ١٩٧٢، «صحراء ريتز»، ١٩٧٨، «موسم زا»، غراسيه، ١٩٨٢.

المترجمة ضياء حيدر ولدت في جبيل، لبنان. درست الإعلام والتوثيق في الجامعة اللبنانية، وعملت في الصحافة اللبنانية بين عامي ١٩٩٦ و٢٠٠٥، قبل أن تنتقل للعمل والعيش في الإمارات، حيث تعمل في مجال الترجمة والصحافة الإلكترونية. لها في الترجمة: «سلاحف بوليلنغا»، «في بلاد تيتو»، «زيبولين الصغيرة جداً»، وغيرها.